

صانع العجايب

"منذ سنوات عديدة، وفي نفس هذه الغرفة بالذات التي تقطنها الآن أتى شخص بأربع معجزات أمام عيني!"

نطق معلمي سري يوكتسوار هذه العبارة إبان زيارته الأولى لي في غرفتي الجديدة. فبعد التحاقى بكلية سيرامبور أقمت بحجرة في مسكن للطلبة يدعى بانثي. المبنى القديم كان مصنوعاً من الطوب ويطل على نهر الغانج.

وأجلت النظر باهتمام فائق في غرفتي المؤثثة ببساطة وقلت: "سيدي، ما أعرب هذه المصادفة! فهل هذه الجدران الحديثة الزخرفة غنية بالذكريات القديمة؟"

ابتسم المعلم وهو يسترجع الذكريات قائلاً: "إنها قصة طويلة. لقد كان اسم ذلك الدرويش (أفضل خان) وقد اكتسب مواهبه الخارقة بالتعرف اتفاقاً على يوجي هندي. فقد حصل ذلك لأفضل أيام شبابه في إحدى القرى الصغيرة في شرقي البنغال حينما قال له الناسك: "يا بني، إنني عطشان، فاحضر لي بعض الماء."

وأجابه أفضل: "يا معلم، أنا مسلم فكيف تتقبل - وأنت هندي - ماء من يدي."

فقال له الناسك: "يعجبني صدقك يا بني. إنني لست من المتمسكين بالتقاليد الآثمة التي تخلق الفرقة والشقاق بين البشر. هيا احضر لي الماء على الفور."

وكمكافئة لطاعة أفضل واحترامه، نظر إليه اليوجي بعطف ومودة وقال له مؤكداً:

"إنك تمتلك (كارما) طيبة من حيواتك الماضية، لذلك سألقنك طريقة من طرق اليوغا تضع تحت تصرفك عالماً من العوالم غير المنظورة. والقوى العظمى التي ستصبح في متناولك ينبغي أن تمارسها لعمل الخير لا للمنفعة الأتانية! ولكن للأسف أرى أنك أتيت من الماضي ببعض الميول الهدامة. ومن واجبك أن لا تدعها تنبت وتثمر بتغذيتها بأفعال جديدة رديئة. والتعقيدات التي تتصف بها كرمك الماضية تقتضيك استخدام هذه الحياة لتوظيف مكاسبك اليوغية في خدمة أسمى الأهداف الإنسانية!"

وما أن لقن المعلم الطريقة المعقدة للشباب الذاهل حتى اختفى عن الأنظار!

واظب أفضل على ممارسة التدريب اليوجي على مدى عشرين عاماً، وانتشرت أخبار أعماله المعجزة بشكل مثير. وبدا كما لو أن روحاً غير متجسدة يدعوها (حضرة) كانت ترافقه. وهذا الكائن غير المنظور كان قادراً على تحقيق أقل رغبات الدرويش.

تجاهل أفضل تحذير معلمه وراح يسيء استخدام مواهبه، فكان كل ما يلمسه بيده ثم يتركه يختفي على الفور دون أثر. وهذه الأحداث المقلقة جعلت من أفضل ضعيفاً غير مرغوب فيه!

وزار الدرويش محلات كبيرة للجواهر في كلكتا من وقت إلى آخر كراغب في الشراء، وكانت الجواهر التي يلمسها تختفي فور مغادرته المتجر.

وكان يحيط بأفضل بضع مئات من المریدین الذين كانوا يأملون في تلقن الأسرار على يديه. وكان الدرويش يدعوهم أحياناً لمرافقته في أسفاره. وفي محطة القطارات كان يحاول لمس حزمة التذاكر ثم يعيدها للموظف قائلاً: "لقد غيرت رأيي، ولن أشتريها الآن." وما أن كان يستقل القطار مع حاشيته حتى تأتيه التذاكر المطلوبة. وقد أخبرني والذي بعد ذلك أن سكة حديد بنغال – ناغبور التي كان نائب رئيسها، كانت إحدى الشركات التي غدر بها أفضل خان. وأحدثت هذه الأعمال الاستغلالية حنقاً على نطاق واسع، وانهارت أعصاب تجار المجوهرات وبانعي التذاكر في البنغال. وحتى رجال الشرطة الذين حاولوا إلقاء القبض على أفضل وجدوا أنفسهم عاجزين، إذ كان الدرويش قادراً على محو إثباتات الجرم بمجرد قوله: "أبعد هذا يا حضرة."

ونهض سري يوكتسوار من مقعده وتوجه نحو شرفة غرفتي المظلة على الغانج، فمشيت خلفه متلهفاً لسماع المزيد من أخبار هذا الرجل العجيب، وقال المعلم ضاحكاً: هذه الدار كان يملكها أحد أصدقائي الذي تعرف على أفضل ودعاه إلى منزله، ودعا كذلك نحو عشرين من جيرانه كنت أحدهم. وكنت حينذاك شاباً يملأ نفسي حب الاستطلاع عن ذلك الدرويش، وقد احتطت للأمر فلم أحمل معي شيئاً ذا قيمة! فرمقني أفضل بنوع من الفضول ثم قال:

"لديك يدان قويتان. انزل إلى الحديقة واحضر حجراً أملس واكتب عليه اسمك بالطباشير ثم اقدف بالحجر بكل قوتك في الغانج."

فعلت ما طلبه مني، وما أن غاص الحجر تحت الأمواج البعيدة حتى قال لي الدرويش:

"إملاً دلواً بمياه الغانج من أمام هذه الدار."

وبعد أن عدت بالدلو صاح الدرويش: "ضع الحجر في الدلو يا حضرة!"

وظهر الحجر على الفور، فأخرجته من الدلو ووجدت عليه توقيعاً مقروءاً تماماً كما كتبتة.

وكان أحد أصدقائي في الغرفة يلبس ساعة وسلسلة ذهبية عتيقتين. وما أن تفحصهما الدرويش بإعجاب لا يبشر بالخير حتى اختفتا في التو واللحظة. فتضرع له صديقي وكاد الدمع يظفر من عينيه، قائلاً:

"يا أفضل، بالله عليك أعد إلي تحفتي الموروثة عن السلف!"

وظل الدرويش صامتاً لبعض الوقت ثم قال له: "عندك خمسمائة روبية مخبأة في خزانة حديدية، احضرها لي وسأخبرك أين تجد ساعتك."

توجه الصديق الحزين فوراً إلى منزله وعاد بعد قليل وناول أفضل المبلغ المطلوب، فطلب منه الدرويش أن يتوجه إلى الجسر الصغير قرب بيته وينادي حضرة كي يعيد إليه الساعة والسلسلة.

وانطلق الرجل مسرعاً، ثم عاد وعلى وجهه ابتسامة الرضا ولكن دون أي جواهر.

وقال الصديق: "عندما طلبت من حضرة كما أوصاني أفضل اندفعت ساعتني من الهواء باتجاهي وحطت في يدي اليمنى! ويمكنكم أن تتأكدوا أنني وضعت هذا التذكار في خزانتي قبل العودة إليكم هنا!"

ونظر أصدقاء الرجل – الذين شهدوا المأساة الكوميدية وفدية الساعة – باستياء إلى أفضل الذي قال مسترضياً خواطرهم:

"اطلبوا ما شئتم من الشراب يأتيكم به حضرة."

طلب البعض حليباً، وطلب آخرون عصير فاكهة، ولم تكن دهشتي كبيرة عندما رأيت ذلك الصديق الرابض الجأش يطلب الويسكي. وأصدر الدرويش أمره فأرسل المفضل الخدم (حضرة) حاويات محكمة السد، أتت سابحة في جو الغرفة وهبطت على الأرض فوجد كل واحد شرابه المطلوب.

أما المعجزة الرابعة فكانت دون شك ممتعة لمضيفنا، إذ عرض أفضل على الحاضرين غداء فورياً!

واقترح الصديق المكتتب قائلًا: "دعنا نطلب أشهى المأكولات، لأن بودي الحصول على غداء فاخر للتعويض عن الخمسمائة روبية! ويجب أن تقدم ألوان الطعام على أطباق من ذهب!"

وحالما انتهى كل واحد من اختيار الطعام المحبب إليه، خاطب الدرويش (حضرة) الذي لا حد ولا انتهاء لكرمه. وقد تلت ذلك جلبة كبيرة ومن حيث لا ندري من أين أتت استقرت عند أقدامنا صحن ذهبية مليئة بالكاري المعد بعناية، مع الشوربة الساخنة والثمار التي في غير موسمها، وكانت الأطعمة شهية. وبعد أن أمضينا ساعة في تناول الطعام شرعنا في مغادرة المكان، وإذا بضوء قوي للغاية تشبه تكويم الصحن على عجل فوق بعضها دفعنا لأن ننظر حولنا، ودهشنا لأن نجد أن الصحن اللامعة قد اختفت مع بقايا الطعام دون أن تترك أثراً."

وقاطعت معلمي قائلًا: "إن كان بمقدور أفضل الحصول بسهولة على مثل هذه الأطباق الذهبية فلماذا يطمع في ممتلكات الغير؟"

فقال سري يوكتسوار مفسراً: "لم يكن الدرويش حاصلًا على استنارة روحية سامية. وإتقانه لأحد طرق اليوغا جعله يقترب من أحد المستويات الكوكبية حيث تتجسد الرغبات والمشتبهات على الفور. وبمعاونة كائن كوكبي يدعى (حضرة) استطاع الدرويش أن يستجلب بقوة الإرادة ذرات الأشياء من الطاقة الأثيرية. لكن هذه الأشياء التي يتم استقدامها من العالم الكوكبي هي سريعة التلاشي بطبيعتها! ولا يمكن الإحتفاظ بها طويلاً. وأفضل كان لا يزال يطمح إلى شراء دنيوي أطول بقاءً بسبب صعوبة تحصيله. "

وقلت ضاحكا: "وهذا أيضا يختفي أحيانا بكيفية يصعب تعليلها!"

وواصل المعلم حديثه: "لم يكن أفضل عارفاً بالله. المعجزات النافعة والدائمة يقوم بها القديسون الصادقون والأولياء الصالحون بسبب توافقه مع الخالق الكلي القدرة. وأفضل لم يكن سوى شخص عادي بقوى غير عادية مكنته من النفاذ إلى عالم أثيري شفاف لا يبلغه الناس عادة إلا بعد الموت."

وأجبت: "أدرك ما تقوله يا سيدي، ويبدو أن لما بعد الموت مزايا جذابة."

ووافقتي المعلم واستطرد قائلا: "لم أرَ أفضل بعد ذلك اليوم. ولكن بعد بضع سنوات جاء الصديق إلى داري ليطلعي على مقال في إحدى الصحف يتضمن اعترافاً علنياً لذلك الفقير، ومنها عرفت الحقائق التي أخبرتك بها عن تكريس أفضل في مستهل حياته على يد معلم هندي."

وكان فحوى القسم الأخير من المقال كما ذكر معلمي على هذا النحو:

"أنا أفضل خان أكتب هذه الكلمات من التوبة والتحذير لأولئك الذين يسعون للحصول على قوى خارقة. فعلى مدى سنوات أسأت استعمال القوى العجيبة التي مُنحت لي كإحسان من الله ومن معلمي. ولكنني انتشيت بالزهو والغرور وشعرت بأنني فوق كل قانون، إلى أن جاء يوم حسابي في النهاية."

"فمنذ فترة قصيرة قابلت عجوزاً في أحد طرق كلكتا يعرج بألم ويحمل شيئا لامعاً له بريق الذهب. وقد خاطبته والطمع يملأ نفسي:

"إنني أفضل خان الدرويش العظيم. ما الذي تحمله؟"

فأجابني: "أحمل هذه الكرة الذهبية التي هي ثروتي المادية الوحيدة، وهي ليست ذات قيمة لشخص مثلك. أسألك بالله يا سيدي أن تشفي عاهتي!"

"ولمست الكرة وابتعدت دون جواب. فظلع العجوز راكضاً خلفي ثم صاح بأعلى صوته: "لقد فقدت ذهبي!"

"وإذ مضيت في حال سبيلي دون أن أعره التفاتة نطق بصوت جهوري لا يتناسب مع جسمه المهدود قائلا:

"ألا تعرفني؟"

"ووقفت مبهوراً في حيرة واندهال لما اكتشفته بعد فوات الأوان: فذلك العجوز الأعرج لم يكن سوى معلمي العظيم الذي لقتني في الماضي البعيد طريقة اليوغا. ثم قوم الرجل ظهره فظهر جسمه على الفور كجسم شاب قوي، وكان بصره المسدد نحوي كاللهب الحارق وقال:

"أهكذا تفعل؟! ها أنا أرى بعيني أنك تستخدم قواك لا لمعونة البشرية المتألّمة بل لتنقض عليها كاللص! إنني أسترده قواك السرية. لقد تحرر (حضرة) من أسرك الآن، ولن تبقى بعد الآن

رعبا لأهل البنغال!"

"وناديت حضرة بقلب منسحق ولكن للمرة الأولى لم يظهر لبصري الداخلي بل أن حجاباً مظلماً انزاح فجأة فبان لي بوضوح سلوكي المشين، ورحت أنشج مرتماً عند قدمي معلمي قائلاً:
"يا سيدي، إنني أشكرك لأنك أتيت لتقضي على خداعي وتبدد أوهامي الطويلة. أعدك بأن أهرج مطامعي الدنيوية وأذهب للجبال كي أتأمل على الله علني أكفر عن آثامي الماضية."
ونظر إليّ معلمي في حنو صامت وقال: "إنني أحس بإخلاصك. وبسبب السنوات الأولى التي كنت فيها مثلاً للطاعة، ومكافأة لتوبتك الحاضرة فإنني أمنحك هبة واحدة فقط من الهبات التي لم تعد الآن في متناولك: فحينما تحتاج إلى الطعام أو الثياب فبإمكانك أن تنادي حضرة وسيلبي طلبك. كرّس نفسك قلباً وروحاً للمعرفة الإلهية في خلوات الجبال."
"واختفى معلمي بعد ذلك وبقيت لوحدي مع الدموع والذكريات. وداعاً أيها العالم! فإنني ذاهب لأطلب الصفح والغفران من المحبوب الكوني!"

المصدر: مذكرات يوغني: السيرة الذاتية

بقلم: برمهسا يوغانندا

ترجمة حديثة منقحة: محمود عباس مسعود